

الحلقة الثامنة والثلاثون

أقوال المسيح

برنامج أنوار كاشفة

أهلاً ومرحباً بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. يسرنا أن نتابع تقديم هذه السلسلة وهي تحت عنوان: «أقوال المسيح». لقد تكلم المخلص يسوع المسيح بأقوال عديدة مليئة بالحكمة، مما أثار إعجاب الناس من حوله، كما أكدت أيضاً على سلطانه الإلهي.

لعل السؤال الذي يجب أن نطرحه في لقاء اليوم هو: ما هي مقومات العبادة الحقة لله؟ وهل تكون العبادة مجرد طقوس وتقاليد ومراسيم يقوم بها الإنسان؟ أم أن العبادة لله يجب أن تكون من القلب؟ وكيف بمقدور المرء أن يعبد الله حقاً ومن القلب؟ للإجابة عن كل هذه التساؤلات لابد لنا أن نعود إلى ما دوتّه لنا البشير متى، من أحاديث دارت بين المخلص المسيح وبعض القادة اليهود الدينيين من فريسيين وكتبة. فقد أتى هؤلاء محتجين بسبب مخالفة تلاميذ المسيح لبعض التقاليد المتبعة، وطرحوا على المسيح هذا السؤال الهام:

«لِمَاذَا يَتَعَدَّى تَلَامِيذُكَ تَقْلِيدَ الشُّيُوخِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَغْسِلُونَ أَيْدِيَهُمْ حِينَمَا يَأْكُلُونَ خُبْزاً؟» فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ أَيْضًا، لِمَاذَا تَتَعَدَوْنَ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ؟ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْصَى قَائِلًا: أَكْرِمِ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يَشْتُمُ أَبًا أَوْ أُمًَّ فَلْيَمُتْ مَوْتًا. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: مَنْ قَالَ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلَا يَكْرُمُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ. فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! يَا مُرَاوُونَ! حَسَنًا تَبَأْتُمْ عَنكُمْ إِشْعِيَاءُ قَائِلًا: يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هَذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفْتِيهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا. وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ» (بشارة متى ١٥: ١-٩).

اعترض الفريسيون والكتبة على تلاميذ المسيح لأنهم لا يغسلون أيديهم عندما يأكلون خبزاً حسب التقاليد التي سنّها الشيوخ. لكن المسيح وجّه اهتمامهم إلى أمر أهم آخر، وهو تعديهم هم على وصايا الله وشرائعه بسبب تقاليدهم. سنتأمل الآن بإجابة المسيح هذه.

صديقي المستمع، لقد كشف المسيح لهؤلاء القادة الدينيين أنهم هم الذين يخالفون شريعة الله. لأن الله أوصى بشريعته ضرورة إكرام الوالدين واحترامهما، وهذا يتضمّن مساعدتهما مادياً. وأن من يشتم أباه أو أمه يُقتل قتلاً، وأن من يضرب أباه أو أمه يُقتل

قتلاً. أما سليمان الحكيم فقد كتب في سفر الأمثال قائلاً: «من سبَّ أباهُ أو أمَّهُ ينطفئُ سراجُهُ في حدقةِ الظلامِ» (أمثال ٢٠: ٢٠). وكتب أجور في سفر الأمثال أيضاً: «العينُ المستهزئةُ بأبيها والمُحتقرةُ إطاعةَ أمِّها تُقوِّرها غُربانُ الوادي وتأكُلها فراخُ النسرِ» (أمثال ٣٠: ١٧). هنا نجد خطورة إهانة الوالدين، أو عدم الوفاء بالالتزامات نحوهما بحسب شريعة الله.

مقابل هذه الوصية الواضحة ماذا سنّ القادة الدينيون في تقليدهم؟ لقد أوصوا بأن الشخص يستطيع تجنب مساعدة والديه مادياً إذا قال لهما: قُرْبَانٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي، على أن يدفع بعض المال للهيكل، وبذلك يتخلّص من واجب النفقة على والديه. وهكذا أبطل هؤلاء القادة باتباعهم لهذا التقليد وصية الله. ثم فضح المخلص المسيح موقف هؤلاء القادة الدينيين ووبّخهم قائلاً: «فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ بِسَبَبِ تَقْلِيدِكُمْ! يَا مُرَاوُونَ! حَسَنًا تَنَبَّأَ عَنْكُمْ إِشْعِيَاءُ قَائِلاً: يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هَذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفْتِيهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا. وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ».

أجل، لقد أبطل هؤلاء القادة الدينيون بتقليدهم هذا وصية الله بضرورة إكرام الوالدين ومساعدتهما مادياً. فأتّموا بذلك ما تنبأ عنهم إشعيا النبي قديماً أنهم يقتربون إلى الله بأفواههم، ويكرمونه بشفاههم، بينما قلوبهم مبتعدة عنه جداً. وأصبحت بالتالي عبادتهم لله باطلة، لأنهم أحلّوا تعاليمهم الخاصة بهم بدل وصية الله. أليس هذا ما يفعله الكثيرون في أيامنا هذه؟ فهم يظنون أنهم عندما يذهبون لأماكن العبادة أو يؤدون الواجبات والطقوس الدينية من صلاة وصوم وحج، ويتبرعون بالمال لأعمال الخير والإحسان، فإنهم يعبدون الله. لكن الحقيقة تكون أنهم يعبدون الله بحسب الظاهر فقط، وليس من القلب. ولهذا تُعتبر عبادتهم باطلة.

مستمعي الكريم، لحلّ السؤال الذي يجب علينا أن نطرحه الآن هو: لماذا لا تجدي التقاليد والواجبات والطقوس والمراسيم الدينية نفعاً في عبادة الله؟ وللجواب نقول: لأن كل تلك الأعمال هي أعمال يقوم بها الجسد وكأنها واجب عليه، ولا تصدر عن القلب من الداخل. بينما المطلوب هو أن تكون العبادة من القلب. فعندما ندّعي أننا نكرم الله ونقوم بواجباتنا نحوه، بينما قلوبنا بعيدة عنه، فلا قيمة إطلاقاً لعبادتنا. إذ لا يكفي أن نقوم بواجباتنا الدينية، بل يجب أن تكون هذه الواجبات نابعة من القلب وعن إخلاص، وإلا أصبحت مجرد تقاليد لا علاقة لها بالقلب. وعندها تنطبق علينا نبوءة النبي إشعيا، وتكون عبادتنا باطلة.

والأمر الثاني المهم أن كل تلك الأعمال لا تبدل من حقيقة القلب الشريرة من الداخل. فهل تستطيع هذه الواجبات والأعمال أن تغير من حقيقة كون قلوبنا شريرة وأنا أناس خطاة؟ بالطبع كلا. إذ لا تقدر هذه الواجبات والطقوس الدينية، أن تطهر قلوبنا من الداخل، وأن تجعل بالتالي عبادتنا لله مقبولة أمامه.

أتعلم مستمعي بماذا وصف النبي إرمياء القلب؟ وصفه قائلاً: «الْقَلْبُ أَخْذَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ، مَنْ يَعْرِفُهُ؟». إن القلب إذن أي داخل الإنسان هو نجس وشرير، ويخدعنا دائماً. ثم تابع النبي إرمياء قائلاً: «أَنَا الرَّبُّ فَاحْصُ الْقَلْبِ مُخْتَبِرُ الْكُلِيِّ لِأَعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ طُرُقِهِ، حَسَبَ ثَمَرِ أَعْمَالِهِ» (إرميا ١٧: ٩-١٠). أجل إن الله هو الذي يفحص قلوبنا ويختبر أعماقنا من الداخل. وهو الذي يكشف مدى بُعد قلوبنا عنه. أمام هذه الحقيقة المؤلمة لم يسع النبي داود سوى أن يطلب من الله قائلاً: «قَلْبًا نَقِيًّا اخْلُقْ فِيَّ يَا اللَّهُ، وَرُوحًا مُسْتَقِيمًا جَدِّدْ فِي دَاخِلِي» (مزمور ٥١: ١٠). إننا بحاجة إذن لكي يطهر الله أولاً قلوبنا حتى نستطيع أن نعبد.

فهل تود مستمعي أن تصلي كما صلى النبي داود قديماً طالباً من الله أن يخلق فيك قلباً نقياً؟ لا سيما أن المخلص المسيح قد تنازل من السماء ومات على الصليب لكي يطهر قلوبنا وأفكارنا من الداخل، ويمنحنا الغفران. وعندها فقط نتحرر من عبودية الخطية، ونستطيع بالتالي أن نعبد الله من كل القلب.